« طَلْحةُ بنُ عُبيدِ اللّه »

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

« من سرَّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض

وقد قضى نحبه ، فلينظر إلى

طلحة بن عُبيد الله »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كانَ طَلحةُ تاجراً واسعَ الثَّراء ، خَرَجَ ذاتَ عام بتجارتَه إلى الشَّام، وفي سُوقِ بصْرَى سَمِعَ راهباً يقولُ وهُوَ يُطلُّ من صَوْمعَته :

ـ سَلُوا أهْلَ هذا المَوْسمَ ، أفيهم أحدٌ منْ أهَلِ الحَرم ؟

فَردَّ طلحةُ قائلاً : نَعَمْ أنَا !

فقَالَ الرَّاهبُ لهُ : هَلْ ظَهر أحمدُ بَعدُ ؟

قالَ طلحةُ : ومَنْ أحمدُ ؟

قالَ الرَاهبُ : ابنُ عَبد اللّه بنُ عبَد المطّلب ، هذا هو شَهرهُ الذى يَخرجُ فيه ، وَهَو آخُر الأنبياء ، ومُهَاجرهُ إلى أرض ذاتُ نَخْل وحَرَّةٌ وسبَاخ . . . فإيّاكَ أن تَسبقَ إليه أو يَفُوتك مَوكبهُ ، فإنهُ مَوْكبٌ الهُدَى والرَّحمة .

دُهشَ طلحةُ منْ مَوقف الرَّاهب العُجوز ، وَرَاحَ يُفكِّر فى كَلامه . ثُمّ أنْهى تجَارتَهُ سَريعاً وعَادَ إلى مكةَ .

وفى مكة سَمعَ ضجيجاً بين القَوْمِ والنَّاسِ يتحدثونَ ، فسألهُم :

ـ هل حَدَثَ أمرٌ بمكةَ ؟

قالوا : نَعمْ ، مُحمدٌ الأمينُ قَد تنبأ ، ويَزعُم أنَّ الوَحى يأتيه ، وأنّه جاءَ برسالة إلى العَرب وإلى النَّاسِ ، وقَدْ تبعهُ ابن أبى قُحافةَ .

أخَذَ طلحةُ يُفكِّر فى كَلام القَوم ويحَدِّثُ نَفْسَه قَائلاً : مُحَمدٌ وأبُوبكر ؟! والله لَا يَجْتَمعُ الاثنان علَى ضَلالة أبداً ، فَلقَد بَلَغَ مَحُمدٌ الأربعينَ منْ عُمره ومَا جَرَّبنا عليه كذباً قطُّ ، إنّه ما كان ليترك الكذبَ عَلىَ النَّاسِ ويكذبَ على اللّه .

وأسْرَعَ طَلحةُ إلى دَارِ أبى بكرٍ وسألهُ : أتَبعْتَ هذا الرَّجلَ . . مُحمداً الأمينُ ؟

قال أبوبكر : نَعمْ . . إنه يَدعُو إلى الحقِّ .

فقصّ طلحةُ على أبى بكرٍ حكايةَ الراهب الذى لقيهُ فى بصرى .

فقال أبوبكر : انطلق بنا إلى رَسُول اللّه لتَقُصَّ عليه ما سَمعتَ .

وانطَلَقَ أبوبكر وطلحةُ بنُ عُبيد اللّه إلى النَّبى ، فأسْلَم طلحةُ ، وكَانَ مِنْ السَّابقينَ الأولينَ إلى الإسلامِ .

* * *

اهتزت مكة جميعها بإسلام طلحة بن عبيد الله ، فهو تاجر ثري ، ذو جاه وحسب ، وفي إسلامه إغواء وفتنة لشبان مكة الذين يترددون بين الدخول في الإسلام أو البقاء على الشرك .

وحاولت قريش أن تعيد طلحة إلى صفوفها ، وأن تردّه إلى عبادة الأوثان ، لكنه رفض بإباء ، وأصرّ على موقفه الجديد من الإسلام ، بل إنه أعلن أنّ ماله وثروته جميعاً مرصودة للإنفاق على الدعوة الجديدة ، وأنه مع الدعاة إلى الإسلام بنفسه وماله ، يتحمّل ما يتحملون ، ويلقى ما يلقون .

ويصدق طلحة فيما قال ، وتمضي الأيام وهو ينفق من أمواله في سبيل الله ، حتى تعرضت ثروته الطائلة لهزات عنيفة فلم يعبأ بذلك ، وتعرض لضغوط وتعذيب من المشركين فلم يتراجع عن دينه ، بل سار في طريق الإيمان بقلب خالص ونفس مطمئنة .

كان طلحة بن عبيد الله يعيش راضياً سعيداً بإسلامه ، وانفاقه في سبيل الله حتى أصبح أحد الرجال الذين يعتز بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وواحداً من خيرة الدعاة إلى الإسلام ، فقد كان يحب ملازمة النبي ، يصغي إلى كلامه وينهل من علمه ، وعندما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين هاجر بعضهم إلى الحبشة حتى يأذن الله بالخير ، غير أن طلحة لم يهاجر مع إخوانه إلى الحبشة ، وآثر البقاء بجوار النبي يذود عنه ، ويتحمل في سبيل الله الإيذاء والعنت .

وأذن النبيُ للمُسلمينَ بالهجْرة إلى المدينَة ، حيثُ فيها أنصارٌ للدِّين وأخوةٌ للمُسلمينَ ، وطلَبَ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طلْحةَ أنْ يكونَ مع أفواجِ المُهاجرينَ إلى المدينَة يُنْفقُ عليهم مَا بَقى من ثَرْوَته ومَاله ، ويُساعدهم فى مَشاق الرَّحيل والسَّفر .

وهَاجَر طَلحةُ بنُ عُبيد اللَّه إلى المَدينَة قبْلَ هجرة النبى لهَا وانتظَر مَعَ المسلمينَ هنَاكَ وصُولَ النَّبى فى شَوق وحَنين .

وعنَدَما هَاجَر النّبىُ إلى المدَينة استقبله المُسلمونَ بفَرحة غَامرة ، ومن يَومها وطَلحةُ لا يُريدُ البعادَ عَن رسول الله ، كأنه يُعوِّضُ الأيامَ التى افتَقَدَ فيهَا النبىَ بين مكةَ والمدينة ، وأقْسَمَ طلحةُ ألا يَتْركَ النَّىَ ولا يَبْرحَ مجلسهُ إلا لأمرٍ يُكلفهُ به رسُولُ اللَّه .

* * *

وَجَاءتْ غزوةُ بدْر ، أولَى المعَارك بَيْن دُعاة الحقِّ ودُعاة الضَّلال ولمَ يَشْتركْ طلحهُ فى هذه الغزوة ، فَقَدْ كَانَ وقْتَها خَارجَ المدينة فى مهمة ندَبَهُ إليهَا رسولُ الله مع سَعيد بن زَيْد وعندَما أنجز المُهمةَ وعادا إلىَ المدينة ، كَانَ النَبىُ والمُسلمونَ عائدينَ من غَزوة بدر ظافرينَ بالنَّصر .

وحَزن طلحةُ وسعيدُ على ضياع فرصة الجهاد منْهُما فى هَذه الغزوة ، وطيَبَ النَّبىُ خَاطرهُمَا وأخبرَهُمَا أنَّ لهما أجرَ المقَاتلينَ فى هَذه الغَزوة ، وجَعَلَ لهُمَا نَصيباً فى غنائم المعَركة .

وَجَاءتْ غزوةُ أُحُد ، وهَبَّتَ قريشٌ للثأر لقتلاها ، وأعدَّتْ عُدَّتها لهزيمة المسلمينَ ، وجَهَّزَ النَّبيُّ الجَيْشَ ، وحَذَّرَ الرُّماةَ الذينَ فوقَ الجَبَل منْ تَرْكِ أماكنهم ، ودارتْ المعركةُ عند جَبَل أُحُد ، وقُتل كَثيرٌ منَ المُشركينَ ، وانسحبَ الباقونَ فَارِّينَ منْ أرض القتال ، فوضَعَ المسْلمونَ أسلحتَهم ونزَل الرُّماةُ منْ فوق الجَبلِ تاركينَ أماكنَهُم ليَجمَعُوا الغَنَائم التى خلَّفَهَا جَيشُ المُشركينَ .

وفَجأةً عادَ جيشُ قُريش منَ ناحية الجَبَل وحَاصَرَ جيش المُسْلمين ، ودارَ القتالُ منْ جَديد ، وامتلكَ المشْركونَ زمامَ المعركة وشَتَّتوا صُفُوف المُسلمينَ ، وكانَ طلحةُ يتلفّتَ حولهُ بحْثاً عَن رَسُول اللَّه ، فوجَدَ النّبيَ ينْزلقُ وسيوفُ المشركين تُحاصرُهُ ، فطاشَ صَوابُهُ وانطَلَقَ كالبَرق يَشُقُ صفوفَ المشَركينَ حتَى وصلَ إلى النَّبى ، ورأحَ يضربُ بسيفه يميْناً وشمالاً ، والرّؤسُ تَهْوى والأجْسَامُ تتساقَطُ ، وأسرَعَ يَحملُ النّبيَ منَ الحُفْرة التى انزلقَتْ فيهَا قَدَمُهُ ، ويَذودُ عنْهُ بسْيفه بشجاعة لا مَثيلَ لَها ، ويَسَاندُ النّبَى ليبتعدَ به عَن هَذا المكان ، وضَرباتُ المُشركينَ تُصيبهُ ، وسهامهم تَرْشَقهُ ودماؤه تَسيلُ وهُوَ يَجعْلُ من جَسده دُرعاً يَحمى به النّبى ، وحتى جعَلَ النَّبى فى مكان آمن .

وانْتَهتْ المعركةُ بهزيمة المُسْلمينَ ، ونَجَا النُّبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غَدر المشْركينَ ، وقُتلَ عَددٌ كبيرٌ منَ المسْلمينَ وسَقَطَ طلحةُ عَلىَ الأرَض وَهُوَ لا يَقَوى على السَّير أو الوُقُوف وكَانَ

أبُوبَكر الصِّديق وأبُوعبيدَة بنَ الجَرَّاح بجوارَ النَّبى ، فقَالَ لهُمَا النَّبى : دُونَكم أخاكُم .

ونَظَر أبُوبكر وأبُوعُبيدة إلى المُقاتل الجَريحَ فَإذا هو طَلحةُ صريعٌ ، وإذَا به بضْعٌ وسَبعونَ طعنَةً وَضَربةً ورَميةً ، وإذَا بأصبعه مقطوعةٌ فأصلَحوا منْ شأنه حَتى أعادوه إلى دَاره وهُو يَئنُّ منْ أثر الجِراح .

وكَانَ أبُوبَكر الصِّديق بَعْدَهَا إذا ذَكَرَ يومَ أُحد يَقُول :

ـ ذلك كُلّهُ كانَ يَومُ طَلحَة !

وذَلكَ لما أبْداهُ منْ تَضْحَية وإقْدام فى سَبيل اللَّه .

ويَومَ حُنَين ، كانتْ معركةٌ حاسمةٌ ، وكَانتْ صرخَةُ طَلحَةَ فى هَذة المعركة تَخْلعُ القُلوبَ وتبَعثُ الرُّعبَ فى نفُوس الأعداء المُشركينَ ، ممَّا جَعَلَ النَّبى ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ يقولُ عَنْ هَذه الصَّحبة المؤمَنة المُنْذرة :

ـ إنّها فى الجَيش خَيرٌ منْ مَائة رَجُل ! .

ويَومَ حُنَين ، خَرَج إلى طَلحةَ منْ صُفوف المشُركينَ عشْرونَ مبُارزاً منْ أقْوى الرِّجَال ، وأشدهم بَأْساً ، فصرعَهُمَ جَميعاً ، وهُوَ يَقْذفُ الرُّعبَ فى قُلوبهم بصحَبته المُزمجرة ، وتَرديده : اللهُ أكبر .

وهَكذا كانتْ أيامُ طَلحةَ فى عَهْد النَّبى زَاخرةً بالعَطاء والنِّداء ، وذَاتَ يوم قرأ رسُولُ اللّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحَابه قَولُ الله تَعَالى :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

ثُمَّ نَظَرَ النَّبِيُّ إلى أصْحَابِه وأشَارَ إلى طَلحة بن عُبيد اللّه وقَالَ : « مَنْ سَرَّهُ أن يَنْظُر إلى رجلٍ يَمْشِي علىَ الأرْضِ وقَدْ قَضَى نَحبهُ ، فَلْيَنْظُر إلى طَلَحةَ » .

ونَزَلَتْ هذه الكَلمَات علَى قَلب طَلحَةَ بَرْداً وسَلاماً ، فَهُو يَسْيرُ حَاملاً رُوحَهُ عَلى كَفِّه ، يَخوضُ الغَزَوات مع رَسُول اللّه وَهُو يَطلبُ منَ اللّه الشَّهادة فى سَبيله ، ولكنْ لكُلِّ أجَلٍ كتاب ، فلَمْ يَزَلْ فى العُمر بَقيةٌ ويَنْتَقلُ رَسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى رحَاب رَبِّه ، وَيَصبحُ أبُوبكر الصِّديق خليفَةً للمُسلمينَ ، ويمْضى طَلحةُ بنُ عبيد الله فى قَافلة الإيمانَ معَ أصحاب النَّبى ، يَغْزُو معهم إذَا غَزَوا ، وَيَشْتَركُ مَعَ المجُاهدينَ فى قتَال المُرتدينَ ، ويُعطَى المشُورةَ والنَّصحيةَ لأمير المُؤمنينَ ، وفقَ اجتهاده فيمَا تَعلَّمَهُ منَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وَفى خلاَفة عُمرَ بنَ الخَطَّاب كانَ طَلحةُ عابداً مُخْلصاً ، ونَاصحاً أمْيناً حتَى أنَّ عُمَر رَضى اللّه عنهُ اختَاره واحداً من الستة الذين يُختارُ منْهُم أميرُ المُؤمنينَ منْ بَعْده وكَذلكَ كانَ طلحةُ عَوناً لعُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ ، وَإنْ اختَلفَ مَعَهُ فى بعَضَ المواقف ، لا حُباً فى الخلاف والعصْيان ،

بل تمسكاً بقواعد الإسلام وأصول الدين ، هذا مع إحترامه وطاعته لأمير المؤمنين .

وكان طلحة ينفق من ماله على أقاربه وذوى رحمه ، وعلى المساكين والفقراء ، وكان باراً بأهله ، وكان يعولهم جميعاً ، ويخدم ضعيفهم ويزوج بناتهم ، ويقضى دين غارمهم وكانوا لذلك يحبونه كثيراً ، وكان طلحة يحبهم .

وبرغم ذلك كانت ثروة طلحة كبيرة ، دخلت عليه زوجته « سعدى » ذات يوم فرأته ضائقاً مهموماً ، فسألته :

ـ ما شأنك ؟

فقال : المال الذى عندى قد كثر حتى أهمنى وأكربنى .

فقالت له : وما عليك . . أقسمه ، وأنفق منه فى سبيل الله .

فقام طلحة ودعا الفقراء وأخذ يقسم المال عليهم حتى لم يبق منه درهم وكانت لطلحة أرض جيدة ، فرأى أن يبيعها وباعها بثمن كبير ، وجلس أمام المال مفكراً ، ففاضت عيناه من الدمع وهو يردد فى نفسه : « إن رجلاً تبيت هذه الأموال فى بيته لا يدرى ما يطرق من أمر ، لمغرور بالله . . ثم عزم على إنفاقها فى سبيل الله .

ودعا طلحة بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه ، ومضى فى شوارع المدينة وبيوتها يوزعها على المحتاجين حتى أسحر وما عنده منها درهم .

* * *

كَانَتْ الفتنةُ قدَ انْدلعتْ بينَ المُسلمينَ كالنَّار فى الهَشيم بعدَ مَقْتل عُثمان بنَ عفَّانَ ، وإثْرَ تَولىِّ علىَّ بن أبى طَالبَ الخلافَةَ ومبَايعة كَثيرٌ من المُسلمينَ لهُ فلم يَكَدْ الإمامُ علىَّ يَتَقَبلُ بيعةً المُسلمينَ بالمدينَةَ حتَى استأذنهَ طلحةُ والزُّبيرُ بنَ العَوامَ فى الخُروج إلى مكةَ للعُمَرة ، ولَحقاَ بعَائشةَ زَوجُ رسَول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحَرَضَاها على المُطالبة بدَم عُثْمَان .

وفى مكةَ تجمَّعَ عددٌ كبيرٌ من المُسلمينَ ، وَخَرجُوا من مكةَ بثلاثَة ألف مُقاتل إلى البَصَرة مُطالبين بأخذ الثَّأر لعُثْمان .

ولَمْ يكَنْ أمَامَ علىٌّ بن أبى طالب سوى إخماد هَذه الفتنة ومُواجَهَة هَذَا الخَطرَ ، فَخَرجَ عليهم علىٌّ وسَارَ إليهم فى عَشْرَة آلاف رَجُل لقَمع هَذَا التَّمرُد وإعادة الهدوء إلى بلاد الإسلام . والتَقى الجيْشَان ، وكَانَ هَذا التَّحرك السَّريع رجالٌ أرادوا الفتنةَ بينَ المُسلمينَ لغَاية فى نفُوسهم .

وعَنْدَما رأى علىٌّ بن أبى طَالب السيدةَ عائشَةَ فى هَوْدَجهَا علَى الجَملَ فى مُقدَّمَة جَيْش التَّمُرد حَزَنَ وَبكىَ ، أيُقَاتل جَيْشاً مُسلماً تَقودُهُ أمُّ المؤمنين ؟!

ولَمَحَ علىٌّ وَسَطَ الجْيش طَلحَةَ والزُّبيرَ ، فنَادى عليهمَا ، فخَرجَا إليه منْ بيْن الجُمُوع على فَرسَين ، فقَالَ علىٌّ معاتباً :

ـ يا طلحةُ ، أجئتَ بعُرسِ رسولِ الله تقاتلُ بها ، وجبأتَ عُرسَكَ في البيت ؟!

ثمَّ التفتَ إلى الزُّبير بن العوَّام وصاحَ :

ـ يا زُبيرُ . . نشدتُكَ اللَّهَ ، أتذكُر يومَ مرَّ بكَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحنُ بمكان كذا فقالَ لكَ : يا زُبيرُ ألا تُحبُّ عليّاً ؟

فقلْتَ : ألاَ أحبُّ ابنَ خالي ، وابنُ عمّي ، ومَنْ هُو على ديني ؟!

فقالَ لكَ يا زُبيرُ ، أمَا والله لتُقاتلنه ، وأنتَ لهُ ظالمٌ !!

فتذكَّر الزُّبيرُ كلامَ النّبي وقالَ : نَعَمْ الآن أذكُر كلامَ النَّبي وكنْتُ قدْ نَسيْتهُ واللّه لا أُقاتلكَ .

وأرادَ طلحةُ والزُّبيرُ الرُّجوعَ عن الحَرْب بَعدْ أن تبيَّنَ لهُمَا خُطورةَ موقفَهمُا ، وبَينمَا هُمَا يَسيران بفَرسَيْهمَا أمَامَ الجَيْش ، إذْأبصَرا عمّار بنَ ياسر يُحارِبُ في صَفِّ عليٍّ ، فتذكَّرا قولَ النّبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذاتَ يومٍ لعمّار : « تَقتُلكَ الفئةُ الباغيةُ » .

فَفَزِعَ وأدْركَ أنَّ عمَّار بنَ ياسر إذا قُتلَ في هَذه المعَركة ، ستكونُ الفئةُ التي قَتَلتهُ باغيةً ، ويكونُ طلحةُ إذاً باغياً ، هُنَالكَ انسَحبَ طلحةُ بنُ عُبيد الله والزُّبيرُ منْ ساحة القتَال فتَعقَبهمَا رجالٌ وقُتلَ الزُّبير غَدْراً وهوَ قائمٌ يُصلّي لله ، ورَمى مَروانُ بنُ الحكم « الزُّبيرَ » بسَهم فَخرَّ صَريعاً وانْدحر جَيْشُ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ ، وقُتل كَثيرٌ منْ المُسلمينَ من

كلاً الجَيْشين ، وانتهتْ هذه الواقعة « واقعةُ الجَمَل » بانسحاب جَيش عائشةَ ، فغادرت البَصرةَ ، إلى مَكةَ ، وأوصَى علىٌّ بِهَا خَيْراً ، وأحَاطَها بكُلِ حماية ورَعاية وتكريم .

وصلَّى علىٌّ بن أبى طالب على شُهداء المعركَة منْ كلاَ الجَيْشين ثمَّ وقفَ حَزيناً أمامَ قَبْرىّ طلحةَ والزُّبيرُ ، يتذكَرُ قَولَ رسول اللَّه « طَلحةُ والزُّبيرُ جاراىَ فِىَ الجَنَّة » ، ورَاحَ يدَعُو اللَّهَ أن تَجْمَعَهُ بِهِم وَبِرَسول الله فى الجَنَّة » .

« رَضِى اللَّهُ عَنْهُم أجْمَعِين »